محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي 2

المحاضرة الأولى:

المؤسسات الثقافية بالجزائر في العهد العثماني.

إن الحياة الثقافية هي التي تمثل وعاء هذه الدولة أو المجتمع، وتصنع مجدها وترسي دعائم الثقة بين أفراد مجتمعها، ومن هنا تولي الأمم المتحضرة اهتماما كبيرا بالجوانب الثقافية، ومن ذلك إنشاء المؤسسات الثقافية والسهر على تطويرها، ولعلّ أبرز ما يميز المؤسسات الثقافية في الجزائر العثمانية هو وجود المدارس والمساجد وحتى الزوايا التي أنشئت في ظروف متميزة. وهذه المؤسسات حافظت بطريقة أو بأخرى على مقومات الأمة الجزائرية الإسلامية في تاريخها الطويل.

ولما كان النظام العثماني متجها إلى الجهاد البحري، لصد الهجمات الصليبية على سواحل المغرب الإسلامي، ثم إلى النظامين المالي والإداري؛ فإنه أهمل الثقافة لفترات طويلة، فتسبب ذلك في تقلص المعارف ونزول مستواها. إلا أن هذا الوضع لم يثن على بعض الحكام العثمانيين والعلماء المحليين بالإيالة الجزائرية إلى إنشاء ورعاية المؤسسات الثقافية والتعليمية التي كان لها فضل كبير في تفعيل النشاط الفكري، فانتشرت الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا، وظهر عدد معتبر من العلماء، فخلفوا تراثا علميا هاما ما يزال متوارثا بين الأجيال.

لقد تركزت حركة الّثقافة والتعليم في الجزائر قبل مجيء العثمانيين في مجموعة من الحواضر مثل: تلمسان في الغرب، وبجاية وقسنطينة في الشرق، وأصبحت مراكز للإشعاع الثقافي والعلمي حيث ازدهرت العلوم وأنواع الفنون ما سمح بظهور عائلات وأسر علمية ميزت كل منطقة دون غيرها في مناصب مختلفة: كالقضاء، الإفتاء، الإمامة، التدريس وغيرها؛ مثل: ابن مرزوق والعقباني في تلمسان، وأسر ابن باديس، وابن قنفذ والفكون في قسنطينة وأسرة الغبريني في بجاية.

انتشر التعليم في المدن أكثر منه في القرى والأرياف، وهذا ما شجع على ظهور مدن وحواضر إشعاعية أخرى للعلم مثل: الجزائر التي انطلقت إليها الهجرة طلبا للعلم والمعرفة والاستقرار بها، ثم توسعت تلك الهجرة منذ القرن الخامس عشر 15م، والنّصف الأول من القرن السادس عشر 16م إلى الخارج وتمثلت في هجرة العلماء من هذه المراكز والحواضر الكبرى نحو المشرق العربي، والمغرب الأقصى وترجع أسباب ذلك إلى:

- ✓ مجيء العثمانيين إلى الجزائر، ومحاولة تثبيت سلطانهم أثناء القرن 16م في البحر المتوسط ضد القوى الأوروبية من برتغاليين، وإسبان، وفرنسيين، وانصرف هؤلاء إلى الجهاد البحري والعمل الحربي قصد حماية الثغور الإسلامية. هنا اشتد الصراع حول المدن الساحلية مثل: وهران، بجاية،

الجزائر، جيجل وغيرها، التي أصبحت تعيش خطرا مستمرا. ومن هنا انتقلت العلوم والمعارف والحركة العلمية من المدينة إلى الريف وذلك بتأسيس الزوايا العلمية والدينية التي تمثلت وظيفتها في نشر التعليم، وإيواء الضيوف، ومنح الأتباع البركة. وفي هذا الصّدد يقول البوعبدلي: "إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى القرى، واشتهرت عدة معاهد آنذاك في كامل القطر، كمعاهد بني يعلى العجيسي، عبد الرحمان البلولي وبني خليل، والمديّة ومعاهد الراشدية ومازونة.

كما ساهمت الزوايا وكان لها دور في انتقال المعارف إلى الريف دون عناء لتمركزها في هذه المناطق، وبذلك حدث توازن في الحركة العلمية بين الريف والمدينة.

لقد تظافرت العديد من العوامل المؤثرة بشكل كبير في الواقع الثقافي الذي عرفته الجزائر مع مطلع 10هـ/ 16م، ولعل أهمها الهجرة الأندلسية، والغزو الإسباني للسواحل الجزائرية' والتواجد العثماني بالجزائر هذه من بين العوامل التي جعلت الوضع الثقافي في الجزائر طيلة القرن 10هـ/ 16م وضعا سلبيا (أي الانغلاق على الذات) خاصة بالنسبة لفئة كبيرة من علماء الدين، وبذلك كان فقهاء الجزائر الذين عاشوا في القرن الأول من العهد العثماني يرددون أقوال المتقدمين ويحفظونها حفظا سطحيا لا عقل فيه ولا تفكير.

وتؤكد معظم الدراسات التاريخية أن الإنتاج الثقافي خلال القرن 16م للجزائر العثمانية كان محصورا في بعض التفاسير والشروح والحواشي الفقهية والعقائدية التي دوّن مصنفاتها، فكان مضمون الإنتاج يغلب عليه التقليد من حيث التفكير، وكثر استعمال كلمة الحافظ من حيث التفكير. وكثر إطلاقها على جل العلماء والفقهاء، وظاهرة الحفظ جمّدت الإنتاج في العلوم، وجعلته مجرد تكرار لأعمال الآخرين.

1-الحركة العلمية والثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني:

عندما نتكلم عن الحركة الثقافية والعلمية في عهد الأتراك إنما نقصد بها العلم المنقول أو الحركة الدينية كما يذكرها الباحث محمد بن عبد الكريم بقوله: "إن مفهوم العلم في ذلك العصر قد كان اتقانا لفهم الذكر الحكيم وحفظا لمرويات الحديث الشريف ومعرفة أصول العقائد والفقهيات وتعمقا في فن الأصول أما فن المنطق قد جرى فيه خلاف بين العلماء لأنه يمد الى الفلسفة التي حرّم الخوض فيها بعض الفقهاء وحذروا منها تلاميذ ومنعوهم أن يتعلموها لاسيما الذين لم ينالوا قسطا وافرا من عقائد أهل السنة خوفا عليهم من أن يتيهوا في دروب الكفر ومزالق الإلحاد".

كانت الحياة الثقافية في ظل الحكم العثماني في الجزائر، خاصة طيلة القرنين الأولين تعاني من الركود، وهذا خلافا لما سبقها من عهود إذ أعتبر القرن 9هـ/15م خاتمة لإنتاج فترة امتدت ثلاثة قرون

مبتدئة بعهد الموحدين، فهو حلقة بين انتاج عاش في ظل امارات محلية ضعيفة، وآخر عاش في ظل احتلال إسلامي مركزي قوي، وبدخول العثمانيين إلى الجزائر يبدوا أن الحركة العلمية والثقافية عرفت نوعا من الجمود والتقليد واقتصرت الدراسات على الأخذ بما تركه السلف والابتعاد عن الاجتهاد.

وقد عرف القرن 10هـ/16م اهمال العثمانيين للتعليم لطبيعتهم العسكرية وسعيهم وراء المال وعدم اهتمام الأتراك بالجانب الثقافي مما دفع بالعديد من الجزائريين خاصة العلماء إلى الهجرة الى المغرب الأقصى. ويرى الباحث أبو القاسم سعد الله أن الدولة (في العهد العثماني) لم يكن لها أي دخل في التعليم فلم يكن في الحكومة الجزائرية عندئذ وزير لشؤون التعليم أو وكيل أو نحو ذلك من الوظائف الرسمية، لقد كانت هموم الدولة عندئذ منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال (الخزينة)، ولم تكن هذه المداخيل وغيرها تستعمل في نشر التعليم وترقيته وتنميته الثقافية.

وعليه يكاد يجمع المؤرخون المختصون في تاريخ الجزائر العثمانية على أن هذه الفترة كانت فترة ركود علمي، حيث فقدت كبرى الحواضر ومنها تلمسان مركزها وإشعاعها الثقافي الذي كانت تتمتع به في العصور السابقة خاصة الفترة الزيانية، غير أن تدفق الأندلسيين الى الجزائر قبل وبعد سقوط غرناطة، كان له الأثر الواضح في مختلف جوانب الحياة عامة والثقافية بالخصوص، وأسسوا المدارس التي كانت تقدم تعليما عالي المستوى. وكانت لهجرة الأندلسيين أثر كبير على المجتمع الجزائري، فبعد أن تدفقت أعداد هائلة من المهاجرين وكانت طبقات المهاجرين تختلف ثروة وثقافة وجاها، ففيهم أبناء الشعب البسطاء وأحفاد الملوك الوجهاء، وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب القلم، وهكذا كانت المأساة الانسانية في الأندلس خيرا وبركة على مجتمع المغرب العربي الذي كان دائما يلعب دور الوسيط في الانتاج الثقافي وليس دور المنتج، وهكذا فقدت شهدت الجزائر بوصولهم حركة علمية وتعليمية واسعة فكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإنفاق على الفقراء الدارسين وانشاء المدارس، كمدرسة الأندلسيين بالجزائر، واحتكروا بذلك التعليم خاصة في الحواضر، وأضافوا علم الحديث وروايات القرآن ونشروا خطهم الأندلسي، وكانوا يعتمدون في التعليم على النقل والرواية لا على الرأي والاجتهاد.

وإذا كانت كتابات معظم المؤرخين الذين تناولوا الفترة العثمانية بالجزائر (خاصة القرن 10هـ/16م)، قد حكموا على الحياة الثقافية بالركود، فقد حاولت قلّة منهم إعطاء جوانب مضيئة لهذه الفترة الأمر الذي حافظ على الهوية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري، وانتشار التعليم في العهد العثماني كان قد اضطلع به رجال الدين وحفظة القرآن لكريم في المساجد والزوايا.

وهذه الفترة كان من نتائجها ظهور "الجمود الفكري"، حيث اعتكف العلماء والمتعلمون على العلوم النقلية تاركين العقل جانبا، إضافة الى اشتداد الأزمة السياسية واشتداد نفوذ المرابطين والصلاّح

والزهاد كل هذه الظواهر جعلت الناس يقبلون على الطرق الصوفية جموعا، ولعل التصوف مبالغا فيه من ناحية الاعتقاد بالشيخ وهو ما أدى الى غلق باب الاجتهاد وأصبحت الزاوية تنافس المدرسة في كسب الأنصار وكان فيها يدفن الشيخ الصالح ويقصده الناس للتبرك وأصبحت الحركة الصوفية تنتشر على يد كبار الأولياء.

2-المؤسسات التعليمية والثقافية:

أ- الكتاتيب:

الكتاتيب جمع كُتّاب، مشتقّة من التّكتيب الذي يعني تعلّم الكتابة، وهناك من أطلق عليها مصطلح مكتب، وحسب "بوعزيز" فإنها أسست لتجنيب المساجد ضوضاء الأطفال، والحفاظ على نقاوتها. والكتاتيب أسبق وأقدم أنواع المؤسَّسات التعليمية التي عرفها العالم الإسلامي بعد المساجد والجوامع، فهي المرحلة الأولى التي يتمّ فيها تحفيظ الناشئة القرآن والحديث النبويّ وتعريفها بما ينبغي أنْ تعرفه من تعاليم الإسلام، كما تتلقّى فيها مبادئ القراءة والكتابة؛ لأنَّ ظهور الكتاتيب مرتبط في الغالب بتعليم النّاشئة هذه المبادئ، وتُشبه الكتاتيب ما نُسمّيه الآن بالمدارس الابتدائيَّة. ويَسْهَر على نشاط الكتاتيب وتجهيزها معلّم أو مؤدّب له معرفة معيَّنة من العلوم الدينية؛ لأنّه ليس بالضرورة أن يكون عالِمًا ذا كفاءة عالية في هذه العلوم وغيرها، بل شرطه الوحيد أن يكون حافظا لكتاب الله وجودا له.

وقد أدّت الكتاتيب دوراً مهماً، في انتشار الدين والعربية بين الأهالي، الأمر الذي جعلها تحظى بمكانة خاصة بينهم، حتى إنهم كانوا حريصين جداً على تلقّي أبنائهم التّعليم فيها، وتحفيظهم القرآن وأحاديث النبيّ صلى الله عليه وسلم. كما كانت الكتاتيب في الغالب تنشأ من قبل الخواص أو تستأجر من قبل المعلمين، ولكن هذه الطريقة تغيرت بوصول علماء الأندلس إليها واستقرارهم بها، وكذلك بعودة بعض شيوخ تلمسان من بلاد المشرق وإفريقية وعلى رأسهم ابنا الامام وعمران المشدالي حيث أدخلت بعض المواد الجديدة للصبيان كرواية الشعر وقوانين اللغة العربية.

تميز الكتاب منذ ظهوره، ببساطة أثاثه حيث كان يفرش بالحصير المصنوع من الحلفاء أو الدوم التي يجلس عليها الصبيان مشكلين حلقة حول المعلم، وكانت وسائل التعليم متمثلة في ألواح مسطحة والاقلام المصنوعة من القصب، وقطع حجر الصلصال، أما بالنسبة لعطلة التلاميذ، فكانت يومين في الأسبوع، الخميس والجمعة بالإضافة إلى الأعياد الدينية كعيد الفطر والاضحى.

وقد عرّف أبو راس الناصر في تأليفه "عجائب الأسفار" فقال: "المدرسة المتعارفة عندنا هي التي تبنى لدراسة العلم أي: لتعليمه وتعّلمه كمدرسة إبني الإمام بتلمسان، والقشاشية بالجزائر، والمحمدية

بأم عسكر. وأن هذه المدارس لم تكن معروفة في أول الإسلام، وإنما كانت دراسة القرآن وسائر العلوم بالمساجد فقط.

وقد استمدت الكتاتيب قيمتها الثقافية من الأدوار التعليمية التي كانت تمارسها؛ حيث خصص الكتاب لحفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، وكان عدد المتمدرسين في الكتاب الواحد بين خمسة عشر وعشرين صبيا، يقضون في الكتاب ثلاثة أو أربعة أعوام، وللذين يرغبون في مواصلة الدراسة يبقوا سنين أخرى لحفظ القرآن عن ظهر قلب أو يلتحقون بالمدرسة أين يتلقون تدريسهم في الفقه والتوحيد والنحو على يد العلماء من أئمة ومفتيين وقضاة؛ هذا في الحواضر أما بالريف فيلتحقون غالبا بالزوايا لإكمال دراستهم الثانوية.

ومثلت مرحلة التعليم فيها الدمج بين الثانوية والعالية، ويقوم فيها التعليم على الحفظ واستظهار المتون نظما ونثرا، لكنها تعدت نحو الفهم و إثراء المناقشات، لذلك لم يكن العلماء يكتفون بما هو مكتوب فقط، بل ذهبوا أبعد من ذلك إلى إثراءه بأفكارهم، ومناقشة جميع المسائل فيأخذون بها ويستبعدون أخرى، وكانوا يدربون تلاميذهم على ذلك، ومن هنا جاء نظام التخصص في تلك الفترة بين التراجم ويضم العلماء والمفكرين الذين يهتمون بالكتابة و الترجمة لشخصيات دينية وتاريخية، وبين الفقهاء الذين يعكفون على حل المشاكل الفقهية والتعمق فيها و المؤرخين الذين كان دورهم في دراسة الحوادث والتحقيق في الروايات واستخراج الصائب من المزيف. من هنا برزت تسميات مختلفة لبعض العلماء كقولهم بارعا في العربية، متضلعا فيها، عارفا بالنحو، أو انتهت إليه الإمامة، أو الفقه أو الحديث. تلك كلها صفات للجمع بين مختلف العلوم. وتتألف هيئة التدريس من أساتذة متفرغين، يتقاضون مرتباتهم من الأوقاف المحبوسة على المساجد أو الزوايا والمدارس، وبعض الأساتذة هم متطوعون في تقديم بعض الدروس دون أن يتقاضوا مرتبات مثل: الشيخ عبد الكريم بن محمد الفكون المتوفى 1574، أو لهم الأملاك تغنيهم عن الأوقاف.

لقد تأسست هذه المدارس في العهد العثماني، وبلغت شهرتها آفاقا بعيدة، فقد أورد الوزان أن (ليون الإفريقي) تلمسان تحتوي على خمسة مدارس حسنة التصميم مزينة بزخارف الفسيفساء والشائع أن تؤسس بجوار المساجد وذلك لارتباط العلم بالدين، لكنه إذا ابتعدت عن المسجد يؤسس بداخلها مصّلى، وتتنوع معارفها وعلومها من العلوم الدينية التي تقوم على تحفيظ القرآن وتفسيره، وشرح الحديث، والفقه والتوحيد والمنطق والأصول إضافة إلى علوم اللغة والأدب مثل: النحو، الصرف والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء وهي الوسائل الكفيلة للمتعلم بالتحصيل والمرتبطة بالعلوم الدينية. أما العلوم الطبيعية والتجريبية مثل: الفلك، والحساب، الطب والصيدلة العشبية (الطب الشعبي) وغيرها.

ب–المساجد:

محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي 2

كانت المساجد تعتبر مؤسسة تعليمية؛ فعلاوة على العبادة فهي بمثابة الجامعة أو معهد تعقد فيه حلقات البحث وتنظم فيه المناظرات العلمية ودروس الوعظ والإرشاد، ويجتمع فيه أصحاب المصالح العامة والخاصة، بحيث كان الشيوخ يجلسون عند أعمدة المسجد ويلتف الطلبة حوله ويقومون بتدريسهم العلوم الشرعية والنحو واللغة.

واستمرت على هذا المنوال ورغم ظهور المدارس؛ وبالرغم من الانتشار الواسع لهذه الأخيرة لم تستطع الإنقاص من قيمة المساجد وإنما تعايشا معا في نشر رسالة التربية والتعليم. كما كانت تُنظّم فيها المجالس التي لها أثر في توعية الأهالي وتفصيح لسانهم. وقد أشاد ابن خلدون بدور المساجد التّعليمي والعلمي قائلا إن مختلف العلوم كانت كلّها تُعلَّم في المساجد، ومعنى أن المسجد يعد النواة الأولى التي يتلقى فيها الأبناء العلم والمعرفة، فقد أدّت المساجد إلى جانب رسالتها التعبديّة بوظائفها العلمية والسياسية والاجتماعية طيلة فترة الدراسة، كما كان المسجد المكان الذي تسوَّى فيه الأمور المتعلّقة بسكان القرى والمدن.

إن اهتمام العلماء بالعلم في الجزائر، ساعد في تطور وظيفة المساجد، كما يذكر المقري عن مكانة العلماء في الأندلس التي تنطبق على الجزائر، حيث كانوا يقرؤون جميع العلوم في المساجد. وقد ذكر محمد بن عبد الكريم في تقديم كتاب التحفة المرضية أن المساجد "قد كانت مرتعا لحلقات الدروس اليومية، ومحطا لفنون العلم، التي كانت تدرس لذلك العهد، لاسيما في القرى والمدن، حيث لا زوايا تقوم بدورها في بث ما أمكنها من العلوم".

وبما أن المساجد كانت بمثابة الرابطة بين الأهالي في الريف أو المدينة، كثرت العناية بها فلا نكاد نجد قرية أوحيا في المدينة من دون مسجد، ومن بين هذه المساجد ما كان يسمى "جامع الخطبة" لأنها كانت تؤدى فيها صلاة الجمعة والعيدين دون غيرها من المساجد التي غالبا ما تنسب إلى مؤسسيها من سياسيين أو عسكريين أو تجار، بخلاف الزاوية التي غالبا ما تنسب إلى الأولياء الصالحين.

ومن أشهر المساجد والجوامع في الجزائر نذكر على سبيل المثال لا الحصر: جامع ابن مروان وصالح باي (الجامع الجديد) (عنابة)، جامع كتشاوة، جامع الباي والجامع الكبير (قسنطينة)، الجامع الكبير (العاصمة)، جامع سيدي الأخضر (قسنطينة)، سيدي عبد الرحمان الثعالبي (الجزائر)، سيدي الهواري (وهران).

ولما كان المسجد والمدرسة متلازمين لا سيما في العهد العثماني، وأن التعليم كان قضية أهلية مرتبطة بالسكان، فقد أورد لامورسيير الذي كان قليل الاهتمام بالتعليم الإسلامي قوله:" التّعليم العام العمومي والمحاكم هي مجرد تعبير عن المسجد، الذي يتحكم بشكل كبير في الحركة السياسية والفكرية، فقد

كان التعليم موجها لحماية الدين، إنّ تعّلم الكتابة بالنسبة لجميع المسلمين معناه إعادة كتابة حروف الكتاب المقدس، وإن القرآن هو قاعدة حتى للتعليم الابتدائي، كما أنه صار فيما بعد النّص المقرر في الدروس بالنسبة للتعليم الثانوي و هدف الدراسات العليا".

لقد اشتهرت مساجد الجزائر بدورها ووزنها في المجتمع فقد شاركت وساهمت في نهضة الثقافة وتطوير العلوم وتخرج العلماء، فكانت حقا مرك ا ز إشعاعيا ثقافيا ساهمت في ازدهار الحركة التعليمية وكانت قبلة لطلبة العلم والعلماء، كما لعبت دو ا ر مزدوجا من ناحية التعليم ومن ناحية الدين، ولا ننسى كذلك تطور عمران المساجد عبر السنوات.

ج–المدارس:

هي أماكن مخصصة لإلقاء الدروس بها، وقد عرف أبو راس الناصري المدرسة بقوله: "المدرسة المتعارف عندنا الآن هي التي تبين لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه"، والمواد التي كانت تدرس في المرحلة الأولى للصغار القراءة والكتابة والقرآن. ولما ينتقلون إلى المعاهد الكبرى يدرسون المواد التالية: الفقه، التفسير، العقائد والأخلاق لتفسير القرآن والأحاديث، وعلم الحساب.

وكانت تلقى الدروس في المساجد الرسمية مثل المسجد الكبير بتلمسان، وفي الجزائر نجد هذا النوع من التعليم في زاوية القليعة وزاوية مليانة، وفي قسنطينة في مسجد سيدي لخضر.

وقد لعبت هذه المدارس دورا كبيرا في تنمية الحركة العلمية، وتشجيع النهضة العلمية والفكرية، وإثراء تراثنا الثقافي في جميع جوانبه الدينية والأدبية والفلسفية والعلمية. وكانت المدارس منتشرة في المدن مثل: مدارس مدينة الجزائر كالمدرسة العنانية ومدرسة ابن السلطان، مدرسة وهران ومدرسة مازونة ومليانة، المدرسة التاشفينية، اليعقوبية، المدرسة الكتانية وغيرها.

وقد أطلق توصيف المدرسة على المؤسسات الدينية من كتاب وزوايا ومساجد، بحكم " اختلاط وظيفة المدرسة والزاوية والجامع في ميدان التعليم. فقد كانت بعض المساجد والزوايا تؤدي وظيفة المدرسة في نشر التعليم بجميع أنواعه، وخاصة الثانوي. وكانت بعض الزوايا عبارة على مدارس، كما كانت مساكن للطلبة الذين يدرسون. وكانت بعض المدارس ملحقة بالزوايا وأخرى ملحقة بالمساجد. وكثيرا ما ينص الوقف على تأسيس الزاوية وجامع ومدرسة في الوقت نفسه. لذلك فإنه من الصعب تمييز الوظائف التي تؤديها هذه المؤسسات مجتمعة في مجتمع يقوم فيه التعليم قبل كل شيء على الدين، وتلعب فيه المساجد والزوايا (وليس المدارس) الدور الرئيسي.

لعبت المدارس دورا كبيرا في المحافظة على الشخصية الجزائرية، ومحاربة الأمية، وكانت منتشرة في كل المناطق الجزائرية الحضرية والريفية، ولقد كانت الجزائر العاصمة، وقسنطينة، ووهران، وبجاية، وتلمسان، ومازونة مراكز إشعاع علمي، بها أكبر المراكز التعليمية والتربوية.

لعبت هذه المدارس في المدن نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف وهي التي كانت تزود الدولة بما تحتاج إليه من الموظفين، وكان تعيين المدرسين بها من طرف الداي وباقتراح من مدير الأوقاف، وأغلبهم يجمعون بين التدريس والإفتاء والقضاء.

وقد وجدت المدارس في مختلف حواضر الجزائر، فمدينة الجزائر وحدها كانت تحتوي على 229 مدرسة يدرس بها 5583 تلميذا، منها المدرسة القشاشية التي أشاد بها أبوراس الناصري واعتبرها مركزا للتعليم العالي، المدرسة الكتانية بقسنطينة، مدرسة مازونة بغليزان وغيرها. يبعث الجزائريون أبناءهم إلى هذه المدارس لتعلم القراءة والكتابة، وقد تراوح عدد المعاهد التعليمية فيما بين مدارس وزوايا ومعمرات بين 35 و40، وفي الغرب الجزائري اشتهرت مدرسة أبي طالب المازوني في كل أنحاء الوطن.

وتمثلت وظيفة هذه المؤسسات الثقافية في إستقبال الطلبة لمزاولة تعليمهم قصد تخريج الإطارات التي تدعم الجهاز السياسي والإداري والمالي والقضائي والجيش ومختلف مصالح الدولة ومؤسساتها. وكان الهدف من وراء حركة تأسيس المدارس هو نشر التعليم والثقافة من جهة وتوجيه الرعية لخدمة التوجه المذهبي للدولة وهي نصرة المذهب المالكي والعمل على نشره وكانت المدارس خير الوسائل المتاحة لتحقيق تلك الغاية. ونتيجة لهذا تأسست عدة مدارس، ساهمت بدور كبير في نشر العلم والمعرفة.

وعلى العموم فالمدارس مهما كان صداها وحجمها إلا أنها شاركت جميعا في إخصاب الحقل الثقافي والمعرفي للبلاد بتصديرها لعلماء أجلاء ساهموا في بناء الدولة وتفوقها في مجالات عدة كما دعموا صمودها في وجه المخاطر لعدة قرون.

د–الزوايا:

تعتبر المؤسسات العلمية الهامة في بلاد المغرب تطلق الزاوية على البناية ذات الطابع الديني الثقافي، تقام فيها الصلوات الخمس، فضلا عن الدروس الدينية واللغوية التي كانت تلقى على الطلبة، كما يسمح لهم أحيانا بالسكن فيها، ولهذا فقد كثرت الأحباس عليها لتقوم بوظيفتها على أحسن وجه. وقد أنشأ هذه الزوايا إما سلاطين أو أهل الخير أو الرجال الطرق الصوفية ومن أموالهم الخاصة. وكلمة زاوية في الاصطلاح تُطلق على مجموع القبائل التّي تهتم بنشر العلم، وكانوا يسمّون بذلك لملازمتهم الزوايا، فأصبح يُقال لهم (الزواوة) بمعنى أهل الزوايا الذين عرفوا بخدمة الدين والعلم.

ويذهب أبو القاسم سعد الله في تعريفه للزوايا بقوله: الزوايا عبارة عن مؤسسات دينية ومراكز ثقافية ونواد اجتماعية وخلايا سياسية يتعلم الناس فيها مبادئ دينهم وتعاليم شريعتهم وفيها يتلقون مختلف العلوم والمعارف ويقيمون العلاقات الاجتماعية والعسكرية والسياسية.

وهناك العديد من الزوايا التي كانت منتشرة مثل: زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي، زاوية الأمير السنوسي، الزاوية التيجانية (عين ماضي الأغواط)، زاوية الجامع الكبير. وقد ساهمت الزاوية في نشر العلم وأوكلت لها مهمة تحفيظ القران الكريم وتدريس مختلف العلوم سواء النقلية أو العقلية، كالزاوية الملارية والتي مع مطلع القرن 16م، أصبحت تتوفر على ثلاث أو أربع زوايا، زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي 15م، وزاوية أحمد بن عبد اللّه الجزائري. وزاوية محمد بن عمر الهواري التي لم يقتصر التعليم فيها على التصوف فقط، وإنما شمل مجموعة من المعارف سبق لشيخها أن أخذها عن شيوخه في كل من بجاية وفاس.

لم يقتصر التصوف وانتشار الزوايا على المدن الكبرى، بل تعداه إلى القرى، خاصة في القرن 15م نتيجة ظهور ما يسمى بالتصوف الشعبي. ومن أشهر زوايا الأرياف آنذاك: زوايا أعراب بني سويد وبني عامر، الذين تقووا في القرن 15م، وزاوية سعادة الرحماني بمنطقة طولقة في بلاد الزاب، زاوية البطحاء وكانت تستقبل حوالي 500 مريد وتتكفل بإيوائهم وإطعامهم وتعليمهم.

وقد شهدت الزاوية في القرن 16م نموا واسعا كان كرد فعل على ضياع الأندلس 1492م، وعلى الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية حيث عمل شيوخها على إحياء الرباط لتجمع بهذا بين العبادة والتعليم والجهاد، كما وأنها استطاعت كسب ثقة الناس وهذا يعود إلى تيسيرها التعليم للجميع إضافة إلى دورها على مستوى العلاقات الاجتماعية من خلال التوسط في قضايا قضائية بين السكان.

ويؤكد الأستاذ سعد الله أن بناءها يختلف عادة عن بناء المسجد والمدرسة، فالزاوية غالبا ما تجمع بين هندسة المسجد والمنزل وهي في الجملة قصيرة الأسوار منخفضة القباب قليلة النوافذ، وإذا كان لها مسجد فهو في الغالب بدون مئذنة فالزاوية من الناحية الهندسية ليست جميلة شكلها يوحي بالعزلة والتقشف والهدوء[105] ويعرفها إيفون تيران: "أنها مدفن عائلة مرابطين، أي عائلة تملك الأصالة الدينية الوراثية، ويأتي إليها الناس لأداء الصلاة، ثم من أجل التعلم والعلاج وتحظى تعليماتها بثقة كبيرة خصوصا وأنها تقوم على أسس خرافية وغير عقلانية.

كما وسعت هذه المؤسسات نشاطاتها نحو العلم والمعرفة كتعليم الصغار القرآن وتحفيظه لهم، واستظهار بعض السور من الذكر الحكيم، وقد تتعدى إلى تدريس بعض العلوم الأخرى مثل: الفقه والعقيدة، النحو والصرف، البلاغة والمنطق.

وتحتوي مختلف هذه الزوايا على مكتبات عامة تطورت بفضل كتابات مدرسيها وعلمائها، وتضم بين طياتها مخطوطات نفيسة ونادرة في مختلف العلوم منتشرة خاصة في المدن الكبرى مثل: قسنطينة، الجزائر، تلمسان، لذلك احتلت هذه المؤسسات مكانة كبيرة في نفوس الشعب الجزائري، وساهمت في نشر الثقافة والمعرفة بشكل واسع.

ويتجلى دورها في الحركة الثقافية، خاصة الجانب التعليمي من خلال نشاطاتها المختلفة كتلقين العلوم الدينية واللغوية والأدبية، التفسير، الحديث، التوحيد، الفقه وأصوله، التاريخ، وتوجيه الطلبة نحو المدارس المجاورة مثل القرويين (فاس)، الزيتونة (تونس)، وهناك من يتعداها إلى الأزهر الشريف (مصر)، ويؤكد مقدّم التحفة المرضية أن الزوايا تحتل الصدارة بين مختلف المراكز الثقافية في تثقيف المعوزين والفقراء والمتعطشين للعلم.

وقد لعبت دورا بارزا في مجال التعليم خاصة في المرحلة التي لم يكن فيها التعليم مهتما به خاصة في العهد العثماني وفي مناطق الريف، حيث ساهمت في نشره وإحداث توازن بين الريف والمدينة التي كانت بها المدارس الحرة والكتاتيب القرآنية، كانت الزاوية تنفق على طلبتها وتلاميذها والعلماء الذين يدرسون فيها من الأراضي الموقوفة لها أو من الهبات والزيارات التي يقدمها الناس أو المريدون أو من أموال الزكاة.

لقد قدّمت هذه المؤسسات الدينية إسهاما حقيقيا في نشر مختلف العلوم والمعارف خاصة الدينية منها، ما كان ليتأتى دونها في ظل دولة (العثمانية) لا تعنى السلطة الوصية عليها بقطاع التعليم عناية مباشرة؛ وهذا ما أكده "أحمد توفيق المدني" حين قال:" بفضل الزوايا في ذلك العهد، وبفضل الكتاتيب القرآنية التي انتشرت في المدن والقرى انتشارا لا نظير له، وبفضل الدروس التي يقوم بها علماء أعلام في أغلب المساجد بكل المدن الجزائرية، انتشر العلم بين الطبقات الراقية، وقلّت الأمية بين الطبقات الوسطى والعاملة؛ وكانت الحياة يومئذ تساعد على هذا الإقبال على العلم". وأورد كبولاني (X.Coppolani) أنه في الجزائر غالبا ما يكون مفهوم الزاوية مرادفا للمدرسة، لأن هذه المؤسسة تقوم بتقديم مختلف المعارف المدرسية مثل اللغة العربية والقراءة والكتابة وحفظ القرآن والتاريخ والجغرافية والفلسفة والتوحيد.

وعلى هذا الأساس عملت الزوايا على تحفيظ القرآن الكريم ونشر التعليم، والإسلام في المناطق النائية، كما كانت ولازالت مخازن للكتب والمخطوطات، اضافة الى مساهمتها في إزالة الفوارق الاجتماعية، وتوطيد العلاقات بين فئات المجتمع ومحاربتها للسلطة المستبدة، فالزاوية الواحدة تضم الفقير والغني، العالم والأمي، لكن اعتمادها للمنهج التقليدي في التعليم أدى بها إلى الركود والجمود الفكري وشيوع الدروشة والانحرافات.

لقد تعددت وظائف ومهام الزوايا خلال هذه الفترة، فأدت وظيفة اجتماعية تمثلت في إيواء الفقراء والغرباء وعابري السبيل، ووظيفة تربوية تعليمية تمثلت في استقبال طلاب العلم وتوفير كل ما يحتاجونه من خدمات. وبذلك تكون قد ساهمت في تخريج العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفين. ومع مطلع القرن 15م، عظم دور الزوايا الشعبية وزاد انتشارها في البوادي، فكان لذلك تأثير في تقليص الفوارق التعليمية بين الأرياف والمدن.

ويتجلى دورها في الحركة الثقافية، خاصة الجانب التعليمي من خلال نشاطاتها المختلفة كتلقين العلوم الدينية واللغوية والأدبية، وتوجيه الطلبة نحو المدارس المجاورة مثل القرويين (فاس)، الزيتونة (تونس)، وهناك من يتعداها إلى الأزهر الشريف (مصر)، ويؤكد مقدّم التحفة المرضية أن الزوايا تحتل الصدارة بين مختلف المراكز الثقافية في تثقيف المعوزين والفقراء والمتعطشين للعلم.

وتعتبر الزاوية جامعة دينية وملجأ مجانا، لذلك فإنها تقوم بجميع مراحل التدريس الثلاث وقد رأى دوماس أن هذه المدرسة هي مفتوحة للأطفال العرب والقبائل وبعض الأسر ترسل أبنائها إليها رغم بعدها ويدفعون 06 دورو على كل طفل، وهذا للأكل والمسكن والملبس على حساب المؤسسة إلى غاية مغادرته، ويضيف أن الأغنياء و الميسورين يقدمون بعض الهدايا المقبولة و يتلقى التلاميذ التعاليم الإسلامية ثم يعودون للعمل في مناطقهم وهم محملون هذه المعارف بعد 6 أو 7 سنوات تؤهلهم إلى العودة بصفة طلبة وهذا لفتح مدارس صغيرة و يتلقى التلاميذ في الزوايا بعض العلوم منها: القراءات، التفسير، الحديث، التوحيد والفقه و الأصول، البلاغة والأدب، الحساب والتاريخ (ابن خلدون) والطب (ابن سينا).

وقد لعبت الزاوية في الريف أدوارا إيجابية أكثر منها في المدينة، خاصة في مجال التعليم حيث أنها كانت تشتمل على المسجد وقبة للشيخ، وبيوتا للطلبة ومساكن للغرباء والفقراء، وساهمت في نشر التعليم بجميع مستوياته؛ ساهمت وإحداث توازن بين الريف والمدينة التي كانت فيها المدارس الحرة والكتاتيب القرآنية، وكانت الزاوية تنفق على طلبتها وتلاميذها والعلماء الذين يدرسون فيها من الأراضي الموقوفة لها أو من الهبات والزيارات التي يقدمها الناس أو المريدون أو من أموال الزكاة.

هـ–المعمرات:

هي عبارة عن معاهد دينية لتعليم القرآن والعلوم عموما انتشرت في البوادي بمنطقة القبائل خاصة بعد الإحتلال الإسباني لها، وحسب يحي بوعزيز فهي تشبه أحيانا الكتاتيب القرآنية وأحيانا تشبه الزوايا غير الخلواتية.

كانت لها أحباس وقوانين داخلية محكمة وهو الفرق بين الزاوية التي تخضع لشيخ الطريقة أو مقدمها، أما المعمرات فإنها تخضع لنظامها وقانونها الداخلي وفي حالة حدوث أي خلاف داخلي يتولى قدماء المتخرجين منها مهمة الإصلاح وإرجاع الأمور إلى نصابها، فكانت المعمرة تسير ذاتيا وطلبتها ينقسمون إلى طبقات:

-**القداش:** وهم التلاميذ الصغار.

-**الطلبة:** وهم فوق القداش سنا وثقافة.

-**المقدمون والوكلاء والشيوخ الكبار:** وهي أعلى طبقة مهمتها تسير المؤسسة التي يرأسها شيخ مسن يساعده عدد من كبار الطلبة والمقدمين والوكلاء بالإضافة إلى مهمة التعليم كانت تأوي المساكين وتقديم المساعدة لهم.

كان لها دور هام في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وتوسيع قراءته في مختلف المناطق الريفية وبناء الأجيال المتعاقبة، ونجد من هذه المعمرة معمرة الشرفة قرب العزازقة.

و- المكتبات:

هي المركز الثقافي والمعلوماتي الذي يعكس ثرات أمة وتطورها العلمي والأدبي والفني، يذكر أبو القاسم سعد الله أن الجزائر كانت في مقدمة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، كما أن الكتب كانت تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ، أو تجلب من الخارج من الحجاز ومصر، اسطنبول والأندلس، ويقول أيضا أنه قد يوجد عدد من المكتبات قبل مجيء العثمانيين.

ما من شك في أن مثل هذه الحركة العلمية لا يمكن أن تنمو بمعزل عن مصادر المعرفة، فلقد ظهرت المكتبات العامة والخاصة، ولتسهيل عملية المؤسسات السابقة الذكر ضمت الجزائر عددا هاما من المكتبات، التي تحتوي على العديد من الكتب التي كانت إما إنتاجا محليا عن طريق التأليف أو النسخ، أو وصلت الجزائر من مصر والحجاز والأندلس، فالتمغروطي يذكر أن مدينة الجزائر في القرن 16م كانت غنية بالكتب "الكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقيا، أما حواضر بايلك الغرب اشتهرت بها مكتبات تلمسان ومعسكر مازونة بما تضمنته من مخطوطات ومؤلفات وقد وصل عدد المكتبات بها 20 مكتبة، منها المكتبة التي أوقفها الباي محمد الكبير على المدرسة المحمدية بمدينة معسكر.

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مدينة قسنطينة التي كانت تعج بالمكتبات التي حوت كتب المشارقة والأندلوسيين، إضافة إلى المؤلفات المحلية خاصة في عهد صالح باي الذي وفر الاستقرار وشجع العلماء وجلب الكتب وحبس الأوقاف على الطلبة.

وقد عملت الدولة والأفراد على توقيف الاوقاف للمكتبات حتى توفر دخلا للعاملين بها وشراء الكتب الجديدة لتزويد المكتبات بها بهدف استمرار نشاطها التعليمي والفكري. ولم يقتصر الأمر على إنشاء مكتبات عامة، بل كانت هناك مكتبات خاصة يملكها العلماء والفقهاء في دورهم، خاصة لدى الأسر وبيوتات العلم ذات الشهرة الواسعة. وقد اهتم الوراقون بجمع الكتب ونسخها. وقد وجدت معظم هذه المكتبات في مساجد ومدارس، وخاصة منها مكتبة في مدرسة أولاد الإمام التي زارها المقري.

كما يذكر أبو القاسم سعد الله أن كلا من القضاة والدراويش عند مجيئهم إلى الجزائر اصطحبوا معهم مكتباتهم وأوراقهم ووثائقهم، ومن أهم ما جاءوا به كتب الفقه الحنفي ونسخ من صحيح بخاري وكتب الأدعية والأذكار الصوفية. ومحتوى المكتبات في معظمه عبارة عن رصيد من العلوم الدينية منها التفاسير والأحاديث الدينية، فقه الأصول والتوحيد والعلوم اللغوية والعقلية إلى جانب العروض والبلاغة، أما التاريخ والجغرافيا والفلسفة فكانت قليلة أما كتب الحساب والطب والفلك فكانت شبه نادرة.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار أنه كان في الجزائر نوعان من المكتبات منها العامة والخاصة، وغالبا ما كانت هذه المكتبات بجوار المسجد أو المدرسة أو الزاوية، فالمكتبات العامة كانت ملحقة بالمساجد والمدارس والزوايا، تضم مختلف المخطوطات في شتى العلوم يلجأ إليها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي، حيث كانت مساجد الخطبة تحتوي على خزائن الكتب التي أوقفت على العلماء والطلبة.

أما المكتبات الخاصة فهي مكتبات لم تكن تختلف من حيث وظيفتها مقارنة بالمكتبات العامة فهي خاصة بالمطالعة والبحث ولكن في إطار العائلات العلمية والأعيان الذين لديهم غيرة على الكتب ونسخها؛ كعائلة الفكون التي تملك أضخم مكتبة وهي مكتبة حمودة لفكون التي يوجد بها 2500 مجلد فمدينة قسنطينة لوحدها بها 17 مكتبة خاصة أما بايلك الغرب فقد اشتهرت مكتبة أبوراس الناصري.

ومن الأمثلة عن المكتبات العامة: مكتبة المدرسة الكتانية، مكتبة الجامع الكبير، مكتبة المدرسة المحمدية –معسكر –، مكتبة زاوية الشيخ التازي –وهران–، مكتبة زاوية القيطنة، مكتبة مدرسة مازونة، مكتبة زاوية أقبو ومكتبة زاوية الخنقة. أما المكتبات الخاصة فنذكر منها: مكتبة شيخ العرب لابن الصفري ومكتبة الشيخ محمد بن اسماعيل بتكورارن تحتوي على 1500 مؤلف.

أما مدينة الجزائر فقد شهدت تطورات عديدة من الناحية السياسية، وأصبحت قبلة العلماء والطلبة من الريف نحو المدن، وقد بلغ عدد سكانها حوالي 120 ألف في أواخر العهد العثماني الذين تمازجوا بين: العرب والبربر والترك والأندلسيون والنصارى، واليهود، وقد شهدت نموا عمرانيا منذ بناء الجامع الكبير من قبل العثمانيين، وجوامع ومدارس وقد قدر هايدو في القرن 16م عدد جوامعها سبعة لصلاة الجمعة، أما فونتير دوبارادي فيؤكد أن مدينة الجزائر احتوت في أواخر العهد العثماني على 106 مسجد.

لم يقتصر التدريس في المدارس على علومه وثقافته المحلية وإنما تغذى من رافدين أساسيين هما المشرق والأندلس الذين ساهما مساهمة فعالة في تطوير وازدهار المنهج الدراسي وتفعيل طرق التدريس. وقد أورد عبد الرحمان بن خلدون " أن تلمسان حافظت على سندا التعليم عن طريق عالمها الكبير أبي عيسى موسى بن الإمام، الذي أخذ عن مشيخة تونس، التي اتصل سند تعليمها بالمشرق عن طريق القاضي أبو القاسم بن زيتون الذي ارتحل إلى المشرق وأخذ عن تلامذة ابن الخطيب ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن".

مهما يكن عن كيفية التدريس في المدارس أو حتى في المساجد التي اشتركت معها في بث نفس المستوى العالي. أنها كانت تقام فيها المناظرات والمجادلات والمناقشات في قضايا كثيرة فقهية وفكرية لغوية وعلمية تفتح أفاق البحث والاجتهاد وتخلق روح المنافسة بين طلاب العلم. وهذه الصعوبة في تمييز الوظائف التي تؤديها هذه المؤسسات جميعا، راجعة إلى كونها توجد في مجتمع يقوم التعليم فيه أساسا وقبل كل شيء على الدين.